

رحلة سعيدة

فوزى الرفاعى

للأندلس سحرها الكبير فى مشاعر كل عربى فما سافر أحد منهم اليها الا وعادت اليه أطياف ثمانمائة عام أقام العرب خلالها ملكا راسخ الأركان متين البنيان فى تلك البقاع لم تستطع عوادى الزمن ان تمحوه . فبدافع من هذه الذكريات اغتنمت فرصة وجودى فى الجزائر ثم فى المملكة المغربية مدعوا الى أمسيات أدبية أقيمت فيها شعري وجزت البحر من مدينة سيّة الى الجزيرة مارا بجبل طارق الذى خلد اسم فاتحه العظيم طارق بن زياد مدى الدهر .

بت ليلتى فى الجزيرة ثم انتقلت منها الى اشبيلية على بعد ٢٣٦ كيلومترا، وهى مدينة جميلة على ضفة نهر الوادى الكبير بلغت أوج مجدها وحضارتها أيام حكم المعتمد بن عباد وكانت مدينة للمرح والطرب بينما كانت قرطبة مدينة للعلم حتى كان يقال انه اذا مات عالم فى اشبيلية نقلت كتبه الى قرطبة لتباع فيها واذا مات موسيقى فى قرطبة نقلت مخلفاته من آلات الطرب الى اشبيلية لتباع فيها .

هناك مثل اسباني يقول ,, كل من أحبه الله رزقه منزلا في اشبيليه. .

تزوج ملكها المعتمد بن عباد امرأة من عامة الشعب تدعى اعتماد وتلقب بالرميكية .

وكان المعتمد قد رآها تغسل الثياب على ضفة النهر فراقه جمالها وتزوجها، وبلغ من حبه لها انه اشتهى ذات يوم ان يراها على مثل الحالة التي رآها عليها أول مرة تغوص في الطين فأمر باعداد كميات وافرة من المسك والعنبر والطيوب في باحة القصر جبلت بماء الورد كأنها الطين وطلب من زوجته الرميكية ان تسير فوقها حافية القدمين تشبها بحالتها الأولى يوم رآها على ضفة النهر ، وهكذا يفعل الترف وثناء الملك . ولهذا الملك العظيم الشريف المعتمد بن عباد موقف من أروع المواقف النبيلة البعيدة عن الأنانيات هو أنه حين تألب عليه الاسبان يهددون ملكه أراد الاستعانة بسليمان المرابطين يوسف بن تاشفين فجاءه من يحذره من احتمال طمع ابن تاشفين بملكه فقال المعتمد كلمته الخالدة ,, رعى الجمال ولا رعى الخنازير، ، لئن اكون اسيرا لدى ملك عربي مسلم أرعى له الجمال خير له من ان اكون أسيرا لدى ملك الافرنج أرعى له الخنازير .

وصح ما توقعه المعتمد فبعد ان آزره ابن تاشفين بجيوشه وتم لهما الانتصار على الاسبان في معركة الزلاقة المشهورة في رجب سنة ٤٧٤ هجرية الموافقة تشرين الأول سنة ١٠٨٦ ميلادية استأثر ابن تاشفين بالملك واعتقل حليفه المعتمد طليطلة اربع سنوات حتى وافاه الأجل سنة ١٠٩٥ ميلادية ودفن مع زوجته اعتماد الرميكية في قبرين متجاورين ببلدة أغمات القريبة من مدينة مراكش بالمملكة المغربية . كان لى شرف الوقوف على ضريحى هذين البطلين ابن تاشفين الذى

دحر الاسبان ووحد ملوك الطوائف والمعتمد بن عباد الذى ازدهر ملك اشبيلية ايام حكمه .

وكانت زيارتى لهما خلال وجودى فى المملكة المغربية مدعوا لأمسيات أدبية أقيت فيها شعري فى مدينتى تطوان والقصر الكبير .
وتشتهر أشبيلية سياسياً بمأذنة (الجيرالدا) وهى مربعة الشكل ارتفاعها ١٢٠ مترا وعرض كل جبهة من جبهاتها الأربعة ٦٠ ر ١٣ مترا وكان بجانبها جامع مشهور هدمه الاسبان الأقدمون وشيدوا مكانه كاتدرائية فخمة فيها قبر كريستوف كولومبس مكتشف امريكا .

وفى اشبيلية ايضا (الكازار) وهو القصر العربى الفخم الرائع النقوش ، كما يوجد فيها على ضفة النهر برج عربى يسمى برج الذهب بناه العرب سنة ١٢٢٠ ميلادية ليكون برج حراسة ارتفاعه خمسة عشر مترا . بعد انتهاء زيارتى أشبيلية غادرتها بالسيارة الى قرطبة التى تبعد ١٤٠ كيلومترا وفور وصولى هرعت لزيارة أفخم اثر عربى فيها هو جامعها الكبير واسمه بالاسبانية (ماسكيتا) انشأه عبدالرحمن الداخل سنة ٧٨٥ ميلادية وهو غابة من الأعمدة كان فيه ١٤١٧ عمودا ولكن الاسبان الأقدمون هدموا الأعمدة من احدى زواياه وشيدوا مكانها كاتدرائية فخمة وبقي الآن فى الجامع ٨٦٠ عمودا من الأعمدة الرشيقة الملونة .

ويروى التاريخ ان الاسبان بعد ان هدموا الأعمدة من احدى زوايا الجامع وشيدوا مكانها الكاتدرائية التى تفننوا بزخرفتها، دعوا الامبراطور شارل الخامس لافتتاحها وحين جاء وشاهدها وشاهد بجانبها الجامع العظيم غضب وقال لمن حوله : ,, ما كنت أحسب المسجد على هذا القدر من الروعة والاناقة ولو كنت عرفته من قبل لما سمحت بمسه لأن ما بنيتم يمكن ان يبنى فى اى مكان وزمان اما ما أقدمتم على تجزئته وهدمه فانه تحفة فريدة لامثيل لها فى العالم .

ولجامع قرطبة منارة ارتفاعها ٩٣ مترا اما المحراب فهو آية في الروعة والجمال نقشت فيه الفسيفاء الملونة وخطت حوله الآيات القرآنية .

هذا الجامع العظيم مساحته ٢٣ الف مترا مربعا ويتسع لثمانين الف مصليّ وبلغت عبقرية مهندس العرب في بناءه انهم شيّدوه هندسيا بشكل يؤمن توزيع صدى صوت الامام وهو في المحراب ليسمعه سائر المصلين في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه كهرباء ولا مكبرات للصوت. ولا زالت في قرطبة حتى اليوم قنطرة عربية على نهر الوادي الكبير امر ببناءها الخليفة عمر بن عبدالعزيز . وأشهد ان اسبانيا الحديثة تضم اكبر تقدير واحترام للروابط المتينة التي تربطها بالعرب ، من ذلك انها قامت تماثيل لرجال عرب تكريما لهم تقديرا شاهدها بنفسى في قرطبة أحدها للعلامة الكبير ابن رشد أقيم ١٩٦٧ م وآخر لعلى بن حزم أقيم ١٩٦٣م وتمثالا ثالثا لحكيم العيون محمد بن قسوم أقيم ١٩٦٥م وتمثالا رابعا لموسى بن ميمون ، كما شاهدت تمثالا على غاية الفخامة يمثل يدين تتصافحان هما يدا الشاعرين ولادة وابن زيدون ، كما أقامت البلدية احتفالا كبيرا في قرطبة ١٩٦١م تخليدا لذكرى الخليفة عبدالرحمن الثالث بمناسبة انقضاء الف عام على وفاته وشيدت له نصبا تذكاريًا نقشت عليه آيات التمجيد باللغتين العربية والاسبانية. وأعظم من كل هذا ان اسبانيا الصديقة اقامت منذ سنوات تمثالا فخما من البرونز لعبد الرحمن الداخل (صقر قريش) نصب على الشاطئ الاسباني في بلدة المنكب (المونيكير) في المكان الذي نزل فيه حين هرب من بطش العباسيين والتمثال أقيم فوق صخرة ضخمة بارتفاع خمسة أمتار يمثله مرتديا عقالا في رأسه وعلى كتفيه عباءة وقد اتكأ على سيفه . فهل هناك أعظم وأبلغ من هذا التقدير لرجل كان

يمكن ان يعتبره البعض فاتحا محتلا؟ ويفتخر القرطبيون بالقائد العربي محمد بن عامر المنصور المتوفى سنة ١٠٠٢ ميلادية وخلدوا ذكره على طوابعهم ، كما يوجد فى كاتدرائية طليطلة تمثال نصفى لأبى الوليد احد قادة المسلمين الذى حمى المسيحيين من القتل .

ولازالت فى قرطبة الى اليوم اسماء عربية لبعض الشوارع كشارع ابن رشد وشارع ابن الوليد وشارع المنصور وشارع ابى القاسم الزهراوى وكذا فندق باسم فندق الرصافة .

وتشتمل اللغة الاسبانية على مئات الكلمات والأسماء هى ذات الكلمات والأسماء العربية أو بتحريف بسيط كالسكر والزيت والليمون والطاحونة والقنطرة والعمود والعروس والديوان والقاضى والمسك والبهار والساقية والبركة والقلعة والفارس والقائد وكثير غيرها ، كما ان بعض المدن الاسبانية لازالت تحتفظ باسمها ولفظها العربى مثل طريق وقرطبة وغرناطة والحمراء والجزيرة وقارس .

واخيرا غادرت قرطبة وما فيها من ذكريات قاصدا فردوس العرب المفقود فى غرناطة فوصلتها مساء وقضيت الليل مسهدا أترقب طلوع النهار لأهرع لزيارة قصر الحمراء الذى لازال أعجوبة الدهر حتى فى هذا العصر . ودخلت الحمراء فاذا بى أشهد وأرى فوق ماكنت اسمع وأجد اكبر مما كنت أظن ، أبهاء وقاعات وأروقة يكفيها انها حفلت بأكثر من ١٤٠٠ نوعان النقى يخالف احدها الآخر .

طفرت الدموع من عيني وانا أقرأ بين النقوش عبارة ,, ولا غالب الا الله وعز لمولانا ابى عبدالله ,, وتمر بى قوافل السياح فيعرفون انى عربى ابكى مجد أجدادى .

وفى الحمراء ساحة سماوية بطول ٣٥ مترا وعرض ٢٠ مترا محاطة ب ١٢٤ عمودا من الرخام ويتوسط الساحة حوض يحمله اثنا عشر

أسدا من الرخام الأزرق تمج المياه من أغواها وقد نقشت على حافة
البركة أبيات من شعر ابن زمرك يقول فيها :

وضراغم سكنت عرين رئاسة

تركت حزير الماء فيه زئيرا

فكأنما غشى النضار جسومها

و أذاب فى أفواها البللورا

وبعد جولة فى القاعات الساحرة ، قاعة الأختين وقاعة بنى سراج
وقاعة السفراء وبهو العدل أدخل الى الحمام ، أجل الحمام الذى لم
يكن معروفا فى قصور اوروبا حتى بعد انقضاء ستمائة سنة بعد هذا
التاريخ بل ولم يكن فيها مراحيض .

يا الله اى رفاه هذا الذى أراه فى حمام قصر الحمراء ؟ حوض من
الحجر بطول قامة الانسان (كأنه البايو المستعمل حديثا) تعلوه فى
الجدار صنابير ثلاث يصب أحدها الماء الحار والثانى الماء البارد
والثالث العطور فهل بعد هذا ترف ؟

كما ان هناك فى قاعة الاستراحة بالحمام غرفة علوية تجلس
فيها المغنيات تعزفن لتطريب الملك والملكة دون ان تقع عليهن
العين .

وهكذا كنت أرى أفواج السياح تقف ذاهلة مدهوشة امام فتن
الحمراء الرائعة ، وهناك قصة منقوشة على الجدار تروى ان سائحا
مكسيكيا يدعى (أرى ايكاسا) جاء وزوجته لزيارة الحمراء وبينما كان
يطوف مستغرقا فى دهشته مما يرى من مفاتن رأى سائلا أعمى يتقدم
من زوجته يطلب صدقة فقال لزوجته: ,,أجزلى له العطاء يا امرأة فانه
ليس فى الحياة أقسى من ان يكون المرء أعمى فى غرناطة,, وقد صدق
والله فى هذا . وليس أدل على الابداع المذهل فى قصر الحمراء من ان

الكاتب الامريكى المعروف واشنطن ارفنج جاء من بلاده الى غرناطة سائحا فسحر بالحمراء وترك امريكا واقام فى احدى غرف القصر وقد شاهدت بعينى لوحة من الرخام معلقة فوق باب الغرفة المغلق كتب عليها : ,, هنا اقام واشنطن ارفنج سنة ١٨٢٧ م وكتب كتابه المشهور: قصص الحمراء ، ، .

بعد هذا فرجت قاصدا , جنان العريف، واسمها بالاسبانية (جزاليف) وهى حدائق وقصور تبعد عن الحمراء ستمائة مترا كانت مصيغا ومنتجعا للخلفاء لا يستطيع ان أفيها حقها من الوصف وقد عبرت عن مشاعرى بقصيدة قلت فيها :

وجنان العريف من روعة الحسن

كأنى بها من الجنات

أذهلتنى والحسن يذهل أحيانا

فتعيا عن وصفه كلماتى

يقول العلامة شرودر تايلر فى كتابه , مختصر تاريخ العلوم ، ان حماس المسلمين للعلوم كان عظيما جدا فقد انشئت المدارس فى جميع البلاد التى دانت لهم و كانت مكتبة الخليفة الحكم الثانى الذى حكم قرطبة بين سنتى ١٩٦١م - ١٩٧٦م تحتوى على ستمائة الف مجلد ولها فهرس يتألف من ٤٤ مجلدا ، وبالمقارنة نجد انه بعد اربعمائة سنة من ذلك التاريخ لم يكن فى المكتبة الملكية فى فرنسا الاستعمارية مجلدا فقط .

وبتأثير هذه الأمجاد العربية الخالدة فى الأندلس قال الكاتب الفرنسى المشهور اناتول فرانس : ,, ان اشأم يوم فى التاريخ هو معركة بوايتيه التى اندحر فيها العرب : ١٢ / ١٠ / ٧٣٣ ميلادية وتفقهرو علمهم وحضارتهم امام بربرية الفرنجة، وليت العرب ساروا قدما نحو باريس اذا لتقدمت المدينة عدة قرون ,, .

يقول العلامة المرحوم محمد كرد على وزير المعارف فى سورية قديما ان الدكتور روزيه رئيس جامعة لوزان فى سويسرة قال له :
 ,,اننى طفت فى بلاد الأندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب فأعجبت بها كل الاعجاب، ومما شاهدته السدود الباقية آثارها حتى اليوم فى ولاية بلنسية ولولاها لهلك اهل ذلك الاقليم عطشا ..
 ويقول العلامة البريطانى الكبير جوزيف ماك كيب : ,, ان العرب انشأوا فى الأندلس قنوات لضمان الماء الكافى لا للسقاية فحسب بل لتوزيعه فى المدن على البيوت وانه بعد هذا التاريخ بستمائة سنة كانت المياه المنتنة النجسة تجرى فى طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة بينما كانت مدى الأندلس العربية مبلطة منورة سوّيت فيها المجارى أحسن تسوية ..

ويقول المؤرخ سكوت ,, ان بعض القنوات التى كانت تمتد تحت الشوارع ايام حكم العرب لصرف المياه القذرة فى بلنسية تقدر ان تسع سيارة وان أصغر قناة منها تسع دابة..

ويقول الطبيب المؤرخ الأمريكى روبنس : ,, كانت اوروبا فى ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة وكانت اوروبا قذرة بينما كان فى قرطبة الف حمام وكانت اوروبا غارقة فى الوحل بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع وكان اشرف اوروبا لا يعرفون امضاء اسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون الى المدارس ..

يقول الكاتب الفرنسى كلود فارير ,, اننى أعرف كثيرا من الناس لم ترقمهم نابولى ولا أثينا ولا روما ولكن لا أعرف أحدا لم تجذبه غرناطة وغرناطة هى الحمراء ذات السحر والفتنة وتعتر بعض الأسر الاسبانية بأن اصولها عربية ؛ فتروى السيدة احسان زوجة العلامة

المرحوم سامى الدرورى وكان وزيرا ثم سفيرا فى مدريد انهما ذهبا لزيارة جامع قرطبة فاذا بالدليل الاسبانى يشرح للسياح عظمة الجامع وانه كان بمثابة جامعة علمية كبيرة وأشار الدليل فى حماس كبير بعبقرية المهندسين العرب فى بناء الجامع وان هذا المديح والاطناب من الدليل الاسبانى جعلها تسأله عن هويته فأخرج لها بطاقته واذ بها تقرأ عليها اسم ,, فرناندو بنى أمية ,, وقال لها مفاخرا ان شجرة نسبنا العائلية تنتهى الى الأمويين .

وتروى الأدبية السيدة سلمى لحفار الكزبرى انها حين كان زوجها سفيرا لسورية فى مدريد ذهبت لزيارة السيدة كورتينا زوجة مدير وزارة الخارجية الاسبانى فما ان دخلت الدار حتى أقبلت عليها سيدة كورتينا بوجه باشر وزراعين مفتوحتين وهى تقول ,, اهلا بيت العم ! ,, ثم قالت لها اننا ننتمى الى عائلة القصير التى جاءت مع الفتح العربى فأجدادنا و أجدادك ابناء عمومة .

ويروى الكاتب الحلبي الكبير المرحوم سامى الكيالى انه دعى فى مدريد الى حفلة عشاء حضرها السنيور فيلانوفا وكيل وزارة المعارف الاسبانية فاذا به يتحدث عن أنفة العرب وعظمتهم ويقول مفاخرا انه من اصل عربى ويمت الى الأمويين بنسب عريق .

وهناك قصص كثيرة مثل هذه جرت مع الشاعرية عمر ابو ريشة ونزار قباني عن لقاء منها بأسبانية اعتزت بأنها من اصل عربى .

هذه الأمجاد العربية فى الأندلس جعلت المؤرخ الاسبانى بلاسكو ابانيز يصف الفتح العربى لأسبانيا بقوله : ,, لم يكن فى الواقع فتحا فرض على الناس برهبة السلاح بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ,, هذه الأمجاد الرائعة التى أضعها العرب فى اسبانيا ضاعت بسبب خصومات وانقسامات وحروب بين الحكام كان

من نتيجتها ان غادر ابو عبدالله الصغير آخر ملوك بني الأحمر مدينة
 غرناطة فى كانون الثانى ١٤٩٢ م وحين وقف فى الموقع الذى يسمى
 الآن ,, تل الدموع ,, القى نظرتة الأخيرة على الحمراء وبكى فقالت له
 امه الملكة عائشة ,, ابك الآن كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال!,,
 وليس أدل على عظمة ما بناه العرب فى الأندلس من قول الفنان
 الفرنسى هنرى رينول : ,, لئن تزلزل الارض وتتساقط الكواكب وتميد
 الجبال وتنهال المدن ، ماذا يهمنى ؟ على ان تبقى الحمراء سالمة
 خالدة ليتمكن ابناؤنا من مشاهدتها ,, ، وفى هذا الكلام مسك الختام .
 وانى لأتمنى لكل مسلم ومسلمة ان يزور الأندلس ليتأكد ان الحقيقة
 هى اكبر من كل ما وصفت .

